مجلة بادر
المُحكّمة لعلم النفس الإسلامي

الفطرة الإنسانية و أثرها على الصحة النفسية

د. أحمد أحمد عبد العال[1]

Abdelaal-ahmed@hotmail.com

يتناول هذا البحث موضوع "**الفطرة الإنسانية و أثرها على الصحة النفسية**". يرى بعض علماء النفس أن هناك علاقة بين الفطرة الإنسانية والسلوك الإنساني، فبعض العلماء يفسرون السلوك على أنه فطري تؤثر فيه البيئة، فإذا عاد الإنسان إلى فطرته الإنسانية الأصلية؛ فإنه سيسلك السلوك السوي، فيرى الحلال حلالاً فيتبعه، والحرام حراماً فيجتنبه؛ مما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة. وأما إذا انحرف عن الفطرة الأصلية من خلال التنشئة التي لا تتفق في أسلوبها مع الفطرة الأصلية التي فطر الله الناس عليها، فإنه سيسلك سلوكاً غير سوي؛ فيسبب له الشقاء والقلق النفسي.

والفطرة السليمة هي بمثابة المقياس أو المعيار الذاتي الموجود لدى الإنسان؛ لأن الإنسان قبل أن تتدخل عوامل البيئة في إفساد معاييره الفطرية، يمكن أن يهتدي لكثير من السلوكيات السوية، وينفر من كثير من السلوكيات المنحرفة، ولكن الشيطان والبيئة لا يدعانه، الشيطان يدعوه إلى الغواية والضلال، والمجتمع يلقنه معاييره السائدة سوية كانت أو منحرفة، فيتكون لديه عقل مكتسب غير العقل الغريزي الذي خُلق به، لذلك جاءت الشريعة لتصحح المفاهيم السائدة في المجتمعات المنحرفة؛ فتستقيم الفطرة، ويعود التوازن النفسي بين الإنسان وفطرته.

الكلمات المفتاحية:

الحقيقة الشرعية والحقيقة النفسية للفطرة _ مكملات ومفسدات الفطرة _ الصحة النفسية.

[1] محاضر بكلية علم النفس الإسلامي.

Abstract:

This research addresses the topic "human nature and its impact on mental health"

Some psychologists believe that there is a relationship between human nature and human behavior, also Some scientists explain behavior as innate and influenced by the environment, if a person returns to his original human nature; He will behave properly, He sees what is permissible as permissible and follows it, and what is forbidden as forbidden and avoids it. Which brings him happiness in this world and the hereafter. But if he deviates from the original nature through upbringing that does not agree in style with the original nature with which God created people, then he will behave in abnormal behavior, it causes him misery and psychological anxiety. Common sense is the standard or subjective standard that exists in a person, because before environmental factors interfere in corrupting his innate standards, a person can be guided to many normal behaviors and be repulsed by many deviant behaviors, but Satan and the environment do not let him. Satan invites him to deception and misguidance, and society teaches him its prevailing standards, whether normal or deviant, so he develops.

key words:

The legal truth and the psychological truth of nature -- Complements and spoilers of nature - mental health

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ومن اهتدى بهداه، أما بعد.

من القضايا التي شغلت الإنسان وحيَّرته قضية الخير والشر، وطالما تخبطت فيها الفلسفات المختلفة منذ بدء التفكير البشري إلى اليوم. فهناك من زعم أن القيم غير ثابتة، ولا يمكن أن تكون ثابتة؛ لأنها تُسْتَمد من الطَور الاقتصادي والاجتماعي، وما دامت الحياة الاقتصادية والاجتماعية متطورة على الدوام، فالقيم لا بد أن تكون متطورة معها غير ثابتة على وضع من الأوضاع. وأن مايعتبر خيراً في لحظة قد يصبح شراً في لحظة أخرى. وكان مما زاد الأمر تعقيدًا أمام الإنسان في القديم، أن المعتقدات التي اعتقدها لم تستطع أن تجد حلاًّ لمشكلته هذه.

"كانت هناك عقيدة ترى أن الإنسان عبدٌ لقوى مسيطرة هي قوى الشر، وأن الخير يقف عاجزًا أمام طغيانها لا قِبَل له بمُواجهتِها، لذلك فلا سبيل له إلا الاستسلام لها أو ترضيتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإن استخلص من براثنها شيئًا فإلى حين؛ إذ لا تلبث أن تستعيده وتلتهمه؛ لأن قانون هذا الوجود في نظره هو الفناء لا البقاء، ومن هنا لجأ الإنسان القديم إلى عبادة آلهة الشر استرضاءً لها وخوفًا من نقمتِها.

وعقيدة أخرى رأى فيها أن الوجود ما هو إلا حرب سجال، وصراع دائم بين الخير والشر، إن كسب الخير حينًا، خسر أحيانًا، وهي معركة لا تَنتهي ولا تحقّق شيئًا، فما يُبنى يُهدم، وما يُهدَم يُبنى، وما يزول يعود للظهور، وما يَظهر يختفي من جديد، والحياة صراع، وعلى الإنسان أن يقاوم، فهذا قدره.

ثم جاء الإسلام وغمر بنورِه سماء البشرية فأضاء جوانبها وأشاع فيها الأمان. نظر الإسلام إلى الإنسان نظرة موضوعية، نظر إلى نَفْسِه بوصفها مستودع قُوى الكون الذي يعيش في أرجائه، وأقوى مما فيه، فنفْس الإنسان أقوى من الوجود المادي الذي حوله، ببحاره وأنهاره، وأبراجه وزلازله، وسيوله وأعاصيره".(2)

"إن أهداف علم النفس من وجهة نظر إسلامية هي الكشف عن آيات الله تعالى وسننه في الإنسان، أي الكشف عن المبادئ والقوانين التي تنظم سلوك الإنسان وفق مشيئة الله تعالى، ومعرفة المنهج الأمثل لحياته، وفق السنن الإلهية مما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، ومعرفة أسباب انحراف الإنسان عن

(2) العمري، أحمد جمال: مقال بعنوان: نظرة الإسلام إلى الخير والشر. شبكة الألوكة. تاريخ النشر 14/7/ 2015م.

الحياة المثلى السوية، مما يسبب له القلق والشقاء والمرض النفسي، وسوف تجعلنا هذه المعرفة أقدر على فهم الإنسان، وأكثر فعالية في إرشاده، وتوجيهه، وتعديل سلوكه وتنظيم حياته".[(3)]

إن موضع الخلل في المذاهب السابقة جميعاً أنها تُنشئ أفكاراً بعيداً عن الفطرة البشرية في واقعها الحقيقي، وتتخيل أشياءً لا صلة لها بهذا الواقع، أو تتخيل صورة منحرفة لهذه الفطرة تبني عليها أفكارها ومذاهبها، أو قد تهتدي إلى حقيقة جزئية في الكيان البشري فترسم على أساسها صورة جزئية غير شاملة للكيان كله، ومن ثم تخرج مشوهة لا تعبر عن حقيقة الإنسان. ومعظم هذه المذاهب يركز على حقيقة الجسد، ويستبعد أو يستصغر حقيقة الروح، وحقيقة ارتباط الروح بالجسد في كل نشاط يقوم به الإنسان.

تكمن في هذه النقطة أهمية الموضوع، فمن الضروري على الباحث في علم النفس الإسلامي أن يعي طبيعة الإنسان التي وردت إشارات إليها من محكمات القرآن والسنة، فهذه المعرفة سوف تعينه على فهم وتمييز النظريات المفسِّرة لسلوكه أو لشخصيته. ولقد اختار الباحث موضوعاً يتوافق مع هذه الإشارات بعنوان " **الفطرة الإنسانية و أثرها على الصحة النفسية"**. فهناك علاقة بين الفطرة الإنسانية والسلوك الإنساني، فبعض علماء النفس يفسرون السلوك على أنه فطري تؤثر فيه البيئة، فإذا عاد الإنسان إلى فطرته الإنسانية الأصلية؛ فإنه سيسلك السلوك السوي، فيرى الحلال حلالاً فيتبعه، والحرام حراماً فيجتنبه؛ مما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة. وأما إذا انحرف عن الفطرة الأصلية من خلال التنشئة التي لا تتفق في أسلوبها مع الفطرة الأصلية التي فطر الله الناس عليها، فإنه سيسلك سلوكاً غير سوي؛ فيسبب له الشقاء والقلق النفسي.

إشكالية البحث:

تكمن إشكالية البحث في التساؤلات التالية:

- هل النفس محبة للشر؟ أم أن الشر حادث على النفس وليس أصل خلقتها؟
- ماهي موقظات الفطرة؟ وماهي مفسداتها؟
- وأخيراً ما هو دور الفطرة في تنمية الصحة النفسية؟

ولقد قسم الباحث بحثه إلى مقدمة وثلاث مباحث وعدة مطالب:

(3) نجاتي، محمد عثمان: مدخل إلى علم النفس الإسلامي. القاهرة. دار الشروق. ط1. (2001م). ص54

المبحث الأول: الحقيقة الشرعية والنفسية للفطرة.

المبحث الثاني: مكملات الفطرة وأثرها على الصحة النفسية.

المبحث الثالث: مفسدات الفطرة وأثرها على الصحة النفسية.

المبحث الأول: الحقيقة الشرعية والنفسية للفطرة:

المطلب الأول: تعريف الفطرة لغة واصطلاحاً

تعريف الفطرة لغة: جاء في لسان العرب: فطر الشيء يفطُره فَطْراً. والفَطْر: الشق وجمعه فُطُور، قال تعالى: (**...هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ**) (4) ، وأصل الفَطْر: الشق؛ وفيه قوله تعالى: (**إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ**) (5)، أي انشقت.

وفطر الله الخلق يَفْطُرُهم: خلقهم وبدأهم، والفطرة: الابتداء والاختراع، قال تعالى: (**ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...**) (6) ، قال ابن عباس ﷺ: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتُها أي ابتدأت حفرها، والفِطرة بالكسر: الخِلقة. والفِطرة: ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به، وقد فَطَره يَفطُرُه فَطْراً أي خلقه، قال تعالى: (**فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ**) (7) ، وقال أبو الهيثم: الفطرة: الخلقة التي يُخلق عليها المولود في بطن أمه، قال تعالى: (**...ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ**)(8)، وقال تعالى: (**وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي...**) (9) أي خلقني. (10)

وفي معجم مقاييس اللغة: الفاء والطاء والراء أصل صحيح يدل على فتح شيء وإبرازه، من ذلك الفِطْرُ من الصوم، يقال: أفطر إفطاراً. وقوم فطر أي مفطرون، ومنه الفَطْر وهو مصدر فطَرْت الشاة فطراً إذا

حلبتها، ويقولون: الفَطر يكون الحلب بإصبعين. والفِطرة: الخلقة. (11)

---

(4) الملك 3

(5) الانفطار 1

(6) فاطر 1

(7) الروم 30

(8) الزخرف 27

(9) يس 22

(10) ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب. بيروت. دارصادر. د.ط. د.ت. ج5. ص55،56

(11) الرازي، أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت. دار الفكر. د.ط د.ت. ج4. ص510

وخلاصة القول: أن لفظ الفطرة في اللغة قد جاء بعدة معان يمكن إجمالها في معنيين اثنين أساسيين، الأول: بمعنى الشق والابتداء، والثاني: الإيجاد والإبداع. ويمكن الجمع بينهما، بأن المعنى الأول الدال على الشق والابتداء هو مقدمة للمعنى الثاني الدال على الإيجاد والإبداع، وبالتالي فإن المعنى الثاني سيكون نتيجة للمعنى الأول، والجامع بينهما هو عملية الخلق.

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: "وفطر الله الخلق: أي خلقهم وابتدأ صنعة الأشياء، وهو فاطر السموات والأرض".[12] فالله هو الخالق خالق السموات والأرض، والإنس والجن والملائكة، وسائر المخلوقات جميعاً، ومن المعلوم يقيناً أن خلق الله لا بد وأن يكون على أتم هيئة، وأبدع نظام، كما قال تعالى: (**صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ**).[13]

تعريف الفطرة اصطلاحاً:

فسرها الكثيرون بقابلية الحق والتهيؤ لإدراكه، وعن عكرمة: تفسيرها بدين الإسلام، والمراد بفَطْرِهم على دين الإسلام: خَلَقَهُم قابلين له غير نابين عنه، ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل مُساوِقاً للنظر الصحيح،

حتى لو تُركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر.[14]

والفطرة التي طُبعت عليها الخليقة من الدين، فطرهم الله على معرفته بربوبيته، وفيما يتعلق بمعرفة الله وتوحيده، فإن للفطرة حقيقتين: حقيقة شرعية، وحقيقة نفسية.

المطلب الثاني: الحقيقة الشرعية للفطرة

الحقيقة الشرعية للفطرة: هي مقتضى دلالة نصوص الوحيين على فطرية معرفة الله وتوحيده. دلت نصوص الكتاب والسنة على الفطرة دلالة عظيمة، سواء بالتصريح، أو الإشارة.[15]

قال تعالى: (**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ...**). [16]

---

(12) الفراهيدي، الخليل بن أحمد: معجم العين. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. بيروت. دار الكتب العلمية. ط1. (2003م). ج3. ص328

(13) البقرة 137

(14) الآلوسي، محمود شهاب الدين: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم. تحقيق: ماهر حبوش. بيروت. مؤسسة الرسالة. ط1. (2010م). ج20. ص453

(15) المقدم، محمد إسماعيل: فطرية الدين. الإسكندرية. دار الأمل. د.ط. د.ت. ص28

(16) الروم 30

وقال تعالى: **(وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ).** (17)

وفي الحديث عن أبي هريرة ﵁ ، كانَ يُحَدِّثُ، قالَ النبيُّ ﷺ: **"ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدْعَاءَ"**، ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ ﵁: **(فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)** الآيَةَ. (18)

وعن عياض بن حمار﵁ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ ذَاتَ يَومٍ في خُطْبَتِهِ: **"أَلَا إنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ ما جَهِلْتُمْ، ممَّا عَلَّمَنِي يَومِي هذا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وإنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عن دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بي ما لَمْ أُنْزِلْ به سُلْطَانًا".** (19)

وروي عن الإمام الطبري في تفسير آية الروم: "**(فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ)** يقول: فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك الله يامحمد لطاعته – وهي الدين - **(حنيفاً)** يقول: مستقيماً لدينه وطاعته، **(فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ)** يقول: صنعة الله التي خلق الناس عليها، **(لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ)** يقول: لا تغيير لدين الله. أي لا يصلح ذلك، ولا ينبغي أن يُفعل، ونصبت **(فطرتَ)** على المصدر من معنى قوله **(فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ)** ومعنى ذلك: فطر الله الناس على ذلك فطرةً". (20)

والذي يُعتمد عليه في معنى الفطرة: ماذكره الإمام القرطبي فقال: "أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل، التي هي مُعدة ومُهيّأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربه، ويعرف شرائعه ويؤمن به، فكأنه تعالى قال: أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فِطَرُ البشر، لكن تَعرِضهُم العوارض، ومنه حديث أبي هريرة، فذِكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة... ثم قال: إن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول، وتلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام وهو الدين الحق، وقد دل على هذا المعنى قوله ﷺ **"كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ..."** يعني أن البهيمة تلد ولدها

(17) الأعراف 172

(18) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري. تعليق: عبد السلام علوش. الرياض. مكتبة الرشد. ط2. (2006م). ح1358. ص182

(19) النيسابوري، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم. تحقيق: صدقي جميل العطار. بيروت. دار الفكر. ط1. (2003م). ح2865. ص1403

(20) الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: عبد الله عبد المحسن. القاهرة. دار هجر. ط1. (2001م). ج18. ص493

كامل الخلقة سليماً من الآفات، فلو ترك على أصل تلك الخلقة لبقي كاملاً بريئاً من العيوب، لكن يُتصرف فيه، فتُجدع أذنه ويوسم وجهه، فتطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان وهو تشبيه واقع ووجهه واضح". (21)

"وفي آية الأعراف: **(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ)** أجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد: استنطقهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى فقال: انظروا ألَّا تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل... فأقروا له جميعاً بالربوبية عن معرفة منهم به، ثم أخرجهم من أصلاب آبائهم مخلوقين مطبوعين على تلك المعرفة وذلك الإقرار...ولو لم تكن المعرفة ثابتة في الفطرة لكان الرسول إذا قال لقومه: أدعوكم إلى الله لقالوا مثل ما قال فرعون: وما رب العالمين؟ إنكاراً له وجحداً، كأن يكون قولهم متوجهاً. وفرعون لم يقل هذا لعدم معرفته في الباطن بالخالق، لكن أظهر خلاف ما في نفسه. كما قال الله تعالى: **(وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)** (22) وكما قال موسى: **(قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ)** (23) وقول الله تعالى: **(قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)** (24)، وهذا استفهام إنكار بمعنى النفي والإنكار على من لم يقر بهذا النفي. والمعنى: مافي الله شك، وأنتم تعلمون أنه ليس في الله شك. وهذا يبين أنهم مفطورون على الإقرار". (25)

وخلاصة القول: إن الإنسان يولد على الفطرة السليمة، المؤهلة لقبول الحق، بما فيها من قوة تميل بها إلى المعرفة والإيمان، كما في البدن السليم قوة تميل به إلى حُب تناول الأغذية النافعة، وتجنب كل ماهو ضار وخبيث، هذه القوة لو تركت مع صحتها لاختارت المعرفة على الإنكار، والإيمان على الكفر، ولكن عملت أهواؤهم فيهم، وأتتهم الشياطين فدعتهم إلى ما يخالف الدين، فنقضوا الميثاق الذي أُخذ عليهم في صلب أبيهم آدم بعد أن أقروا له بالربوبية، نقضوه بالشرك والتحريف، ونتيجة لهذه المتغيرات التي تطرأ عليها، والعوارض التي تعترضها، تخرج الفطرة عن مسارها المرسوم لها، فتجحد بعد معرفة، وتكفر بعد إيمان.

(21) القرطبي: مصدر سابق. ص427

(22) النمل 14

(23) الإسراء 102

(24) إبراهيم 10

(25) ابن تيمية، أحمد عبد الحليم: درء تعارض العقل والنقل. تحقيق: محمد رشاد سالم. الرياض. جامعة الإمام محمد بن سعود. ط2. (1991م). ج8. ص414، 438.

المطلب الثالث: الحقيقة النفسية للفطرة

الحقيقة النفسية للفطرة: هي مقتضى العلم الضروري الذي يجده الإنسان من نفسه بحيث لا يحتاج في ذلك إلى النظر والاستدلال، ويدل على هذه الحقيقة النفسية الأدلة العقلية،[26] والتي تؤكدها الشواهد.

"إن اكتشاف الله استجابة لنداء داخلي في الإنسان. وعندما يظفر الإنسان بذلك القبس من المعرفة يفاجأ بصيرورته جزءاً من كيانه... فعلاقته بهذه المعرفة ليست علاقة عقلية، وإنما هي علاقة نفسية. وكل ما يشكل جزءاً نفسياً من كيان الإنسان لا يحتاج دليل عقلي".[27]

يقول ابن القيم رحمه الله: "الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقاً، وقد يحصل له منها ما يكون باطلاً. والإرادات تنقسم إلى ما تكون نافعة له متضمنة لمصلحته، وإلى ما تكون ضارة له مخالفة لمصلحته، فإذا عُرض على كل أحد أن يعتقد الحق ويصدق وأن يريد ما ينفعه، وعُرض عليه أن يعتقد الباطل ويكذب ويريد ما يضره، مال بفطرته إلى الأول ونفر عن الثاني، فعُلم أن في فطرة الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة الخير".[28]

فإذا ثبت أن في الفطرة قوة تقتضي طلب معرفة الحق، وإيثاره على ما سواه، وإن ذلك حاصل مركوز فيها من غير تعليم الأبوين ولا غيرهما، بل لو فرض أن الإنسان تربى وحده ثم عقل وميّز لوجد نفسه مائلة إلى ذلك، نافرة عن ضده. فإذا ثبت ذلك ثبت أن نفس الفطرة مقتضية لمعرفته سبحانه ومحبته وإجلاله وتعظيمه والخضوع له، من غير تعليم ولا دعاء إلى ذلك.

"من المعلوم أن النفوس إذا حصل لها معلم وداع، حصل لها من العلم والإرادة بحسبه، ومن المعلوم أن كل نفس قابلة للعلم وإرادة الحق، ومجرد التعليم لا يوجب تلك القابلية للعلم والإرادة، فلولا أن في النفس قوة تقبل ذلك، لم يحصل لها القبول، وإلا كان الحيوان قابلاً لها لو توفرت له وسائل التعليم. فلولا قوة في الفطرة والنفس اختص الله بها الإنسان دون الحيوان يقبل بها أن يعرف الحق ويريد الخير...

(26) محمد إسماعيل: المرجع السابق

(27) خان، وحيد الدين: الدين في مواجهة العلم. ترجمة: ظفر الإسلام خان. بيروت. دار النفائس. ط4. (1987م). ص5

(28) ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. تحقيق: زاهر بن سالم بلفقيه. بيروت. دار ابن حزم. ط1. (2019م). ص1467

لذلك لما بعث الله الرسل، وأنزل معهم الكتب، دعوا الناس إلى موجب الفطرة؛ من معرفة الله وتوحيده، فإذا لم يحصل مانع يمنع الفطرة، وإلا استجابت لله ورسله، لما فيها من المقتضى لذلك... ولو فرضنا توقف هذه المعرفة والمحبة على سبب من خارج، أليس عند حصول ذلك السبب، يوجد في الفطرة ترجيح ذلك ومحبته على ضده؟ فهذا الترجيح والمحبة والإيثار أمر كوني في الفطرة. ولو فرضنا أنه لم يحصل المفسد الخارج، ولا المصلح الخارج، لكانت الفطرة مقتضية لإرادة المصلح وإيثاره على ما سواه". (29)

وهناك شهادات من واقع الحياة تدل على وجود الفطرة في نفوس الناس، وأنها إذا سَلمت من الحجب والمؤثرات تقودهم إلى الحق والنجاة، وكيف كانت أسئلة الفطرة تجول بداخلهم تحتاج إلى جواب.

يقول بول كلارنس ايرسولد أستاذ الطبيعة الحيوية: "ولا شك أن اتجاه الإنسان وتطلعه إلى البحث عن عقل أكبر من عقله، وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع، لكي يستعين به على تفسير هذا الكون، يعد في ذاته دليلاً على وجود قوة أكبر وتدبير أعظم، هي قوة الله وتدبيره. وقد لا يستطيع الإنسان أن يُسلّم بوجود الخالق تسليماً تاماً على أساس الأدلة العلمية المادية وحدها، ولكننا نصل إلى الإيمان الكامل بالله عندما نمزج بين الأدلة العلمية والأدلة الروحية، أي عندما ندمج معلوماتنا عن هذا الكون المتسع إلى أقصى حدود التعقيد، مع إحساسنا الداخلي والاستجابة إلى نداء العاطفة والروح الذي ينبعث في أعماق نفوسنا. ولو ذهبنا نحصي الأسباب والدوافع الداخلية التي تدعوا ملايين الأذكياء من البشر إلى الإيمان بالله، لوجدناها متنوعة لا يحصيها حصر ولا عد، ولكنها قوية في دلالتها على وجوده تعالى، مؤدية إلى الإيمان به". (30)

ويقول دونالد روبرت كار أستاذ الكيمياء الجيولوجية: "لقد حصلت على الإيمان الروحي من عند الله، وهو الذي يسيطر على تفكيري عندما أجيب على مسألة وجوده... إن دراستي العلمية ليس لها شأن بإيماني بالله وتوكلي عليه وحاجتي إليه. فلقد كان الدافع إلى هذا الإيمان حاجة ملحة شعرت بها في قرارة نفسي. أما دراستي بعد ذلك الكيمياء الجيولوجية فقد قادتني إلى الاعتقاد بوجود خالق لهذا الكون. فليس من الغريب إذن أن أعتقد أن هذا الكون ليس إلا مظهراً من مظهر قدرة الله". (31)

(29) ابن القيم: المصدر السابق بتصرف ص 1462، ابن تيمية: مصدر سابق بتصرف ص456:468

(30) مجموعة من العلماء الأمريكيين: الله يتجلى في عصر العلم. ترجمة: الدمرداش عبد المجيد. بيروت. دار القلم. د.ط. د.ت. ص42

(31) المرجع نفسه. ص90

ويقول كلود م. هاثاواي مستشار هندسي: "قبل أن أبين الأسباب التي تدعونا إلى الإيمان بالله، أحب أن أذكر أن معظم إيماني به تعالى في المرحلة الراهنة من مراحل حياتي، يقوم على أساس الخبرة أو الممارسة. والواقع أننا لا يجوز لنا أن نستبعد كثيراً من المعتقدات التي تقوم على أساس الخبرة أو الممارسة، أو أن ننظر إليها على أنها لا تقوم على أساس عقلي، فنحن إذا فعلنا ذلك نكون قد انتقصنا من قدر الطريقة العلمية ذاتها، والأفضل أن نسمي مثل هذه المعتقدات "فوق فكرية"... إن إيماني به في الوقت الحاضر يقوم على أساس خبرة أو معرفة داخلية به، وهي خبرة أو معرفة تتضاءل بجانبها جميع المجادلات الفكرية. وبرغم أن هذا الاستدلال لا يعد مقنعاً بالنسبة لمن لم يمارسوه، فإن له وجاهته وقوته بالنسبة لمن مارسه. لقد وجدت أن الإيمان بالله هو الملاذ الوحيد الذي تطمئن إليه الروح".(32)

إن الإقرار والاعتراف بالخالق فطري في نفوس الناس، يشهد على ذلك التساؤلات الملحة عن الكون والحياة والإنسان، والتي يحتاج الإنسان فيها إلى جواب شافي.

شواهد على الفطرة:

إن دلالة الفطرة على معرفة الله تعالى أقوى من دلالة العلوم العقلية عليه، والشواهد على أن الفطرة تدل على معرفة الله تعالى كثيرة نذكر منها:

1- **لجوء الإنسان إلى الله تعالى حال الكرب والشدة سواء كان مؤمناً أو كافراً**، وهذا اللجوء نابع من شعوره بوجوده تعالى والإقرار بذلك.

قال تعالى: (**هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ**).(33)

وقال تعالى: (**وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا**).(34)

في هذه الآيات اشتدت المصائب بأصحاب السفينة، وأحاط بهم الموت من كل جانب، وظنوا أنه لا نجاة ولا فرار من الهلاك، فهناك اتضحت الفطرة وتجلت.

(32) المرجع نفسه. ص94

(33) يونس 22

(34) الإسراء 67

يقول الآلوسي رحمه الله: "دَعَوه تعالى من غير إشراك لرجوعهم من شدة الخوف إلى الفطرة التي جُبل عليها كل أحد من التوحيد، وأنه لا متصرف إلا الله سبحانه المركوز في طبائع العالم". [35]

يشهد لهذه الفطرة أن الإنسان الذي أبعدته عن فطرته الشياطين والأهواء، هو نفسه إذا أصابه الضر، وانقطع رجاؤه عن جميع الخلق، رجع إلى الله طامعاً في فضله متضرعاً إليه، وإنما دعاه مخلصاً له الدين لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما أصابه من الخوف الشديد.

إن فطرة الإنسان تتضح جلية حين يمسه الضر، ويسقط عنه ما علق بها، وتزول عنها الحجب المانعة، وتتكشف عنها الأوهام، فتتجه إلى ربها وبارئها وتنيب إليه وحده، وهي تدرك تمام الإدراك إنه لا يكشف الضر غيره، وما تملك فطرة أن تقول غير هذا.

قال تعالى: **(وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ).** [36]

يقول سيد قطب رحمه الله: "إن الضر يُسقط عن الفطرة ركام الشهوات والأهواء، ويعرّيها من العوامل المصطنعة التي تحجب عنها الحق الكامن فيها وفي ضمير هذا الوجود، فعندئذ ترى الله وتعرفه وتتجه إليه وحده. حتى إذا مرت هذه الشدة وجاء الرخاء، وخوّله الله نعمة منه، ورفع عنه البلاء، فإن هذا الإنسان الذي تعرت فطرته عند مس الضر يعود فيضع عليها الركام، وينسى تضرعه وإنابته وتوحيده لربه، وتطلعه إليه في المحنة وحده، حين لم يكن غيره يملك أن يدفع عنه محنته... نسي هذا الإنسان ما قاله في الضراء، وانحرفت فطرته بالأهواء". [37]

2- لجوء الإنسان إلى الله تعالى حال الطمع، واشتداد الحاجة إلى أمر ما.

قال تعالى: **(هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ).** [38]

في هذه الآيات لم يكن هؤلاء عندهم مصيبة ولا ضر، ولكنهم تعطشوا إلى أن يكون عندهم ولد، ولذلك عندما تبين الحمل، وتعلقت به قلوب الزوج والزوجة، جاء دور الطمع في أن يكون المولود سليماً معافى، وفي ظل هذا الطمع والخوف والرجاء، تستيقظ الفطرة من داخل النفس، فتتوجه إلى الله تعالى،

(35) الآلوسي: مصدر سابق. ج11. ص97
(36) يونس 107
(37) قطب، سيد: في ظلال القرآن. القاهرة. دار الشروق. ط32. (2003م). ج5. ص3041، 3056
(38) الأعراف 189

طامعةً في فضله وحده، لأنها في قرارة نفسها تعلم أنه وحده القادر على ذلك. إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها أن يتوجهوا إلى ربهم، معترفين له بالربوبية الخالصة عند الخوف وعند الطمع.

3- إجابات المشركين على المرسلين، واعترافهم بالله تعالى

الآيات التي سجلت إجابات المشركين الذين لا يدينون بدين سماوي، تبين ما فطرهم الله عليه من معرفة الله تعالى، وإقرارهم بربوبيته.

قال تعالى: **(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ).** [39]

وقال تعالى: **(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ).** [40]

وقال تعالى: **(وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّار).** [41]

يقول سيد قطب رحمه الله: "لقد كانوا يعلنون أن الله خالقهم وخالق السموات والأرض... ولكنهم لم يكونوا يسيرون مع منطق الفطرة في إفراد الخالق إذن بالعبادة، وفي إخلاص الدين لله بلا شريك. إنما كانوا يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه، ثم يصوغون للملائكة تماثيل يعبدونها فيها. ثم يزعمون أن عبادتهم لتماثيل الملائكة، ليست عبادة لها في ذاتها؛ إنما هي زلفى وقربى لله؛ كي تشفع لهم عنده، وتقربهم منه. وهو انحراف عن بساطة الفطرة واستقامتها، إلى هذا التعقيد والتخريف...". [42]

فالمشركون معترفون بأن الله وحده هو المتفرد بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وأنه الخالق الرازق، هذا ما تقرر في فطرهم، وما تملك فطرة أن تقول غير هذا، ورغم انغماسهم في الشرك وعبادة الأوثان، ما زالت الفطرة تسيطر على نفوسهم، فهم يعبدون أوثانهم زلفى وقربى لله تعالى المعروف في قرارة أنفسهم بالفطرة.

المبحث الثاني: مكملات الفطرة و أثرها على الصحة النفسية:

(39) العنكبوت 61

(40) العنكبوت 63

(41) الزمر 3

(42) سيد قطب: مرجع سابق. ج5. ص3037

"الدين من صميم الفطرة، ففي صميم الفطرة أن تعرف ربها على نحو من الأنحاء. وقد لا تهتدي دائماً إلى الصورة الصحيحة للعقيدة، وقد تمزج بها كثيراً من الخرافات والأساطير، وقد تتصور الحقيقة الإلهية تصوراً منحرفاً، بل قد تلحد بالله إلحاداً، ومع ذلك يظل في صميمها هذا الإدراك لوجود خالق لهذا الكون...".(43)

من تعظيم الله للفطرة أن جعل لها مكملات توقظها من ثباتها وغفلتها فتوجهها إلى الله تبارك وتعالى، فكما أن القدرة على النطق كامنة في كيان الطفل، ولكنها تحتاج إلى معونة ومساعدة خارجية لإيقاظها، فكذلك مقدرة الفطرة على الاهتداء لوجود الخالق كامنة في داخلها، ولكنها تحتاج إلى معونة خارجية توقظها وتحركها وتنميها. ومن أهم هذه المكملات:

المطلب الأول: دور الرسالات السماوية في إيقاظ الفطرة

إرسال الرسل وإنزال الكتب من أهم الوسائل التي توقظ الفطرة الكامنة، وتوجهها إلى الله؛ لأن الفطرة مركوز فيها معرفة الله ومحبته والإخلاص له.

يقول ابن القيم رحمه الله: "الفطر مركوز فيها معرفته، ومحبته والإخلاص له، والإقرار بشرعه وإيثاره على غيره، فهي تعرف ذلك، وتشعر به مجملاً ومفصلاً بعض التفصيل. فجاءت الرسل تذكرها بذلك، وتنبهها عليه، وتفصّله لها وتبينه، وتعرفها الأسباب العارضة لموجب الفطرة، المانعة من اقتضائها أثرها. وهكذا شأن الشرائع التي جاءت بها الرسل، فإنها أمر بمعروف ونهي عن منكر، وإباحة طيب وتحريم خبيث، وأمر بعدل ونهي عن ظلم، وهذا كله مركوز في الفطرة، وكمال تفصيله وتبيينه موقوف على الرسل... وكذلك في الفطرة الإقرار بسعادة النفوس البشرية وشقاوتها، وجزائها بكسبها في غير هذه الدار، وأما تفصيل ذلك الجزاء والسعادة والشقاوة فلا تُعلم إلا بالرسل. وكذلك فيها معرفة العدل ومحبته وإيثاره، وأما تفصيل العدل الذي هو شرع الرب تعالى، فلا يُعلم إلا بالرسل، فالرسل تذكّر بما في الفطر وتفصله وتبينه. والمقصود أن الله فطر عباده على فطرة فيها الإقرار به، ومحبته والإخلاص له، والإنابة إليه، وإجلاله وتعظيمه". (44)

(43) قطب، محمد: دراسات في النفس الإنسانية. القاهرة. دار الشروق. ط10. (1993م). ص211

(44) ابن القيم: مصدر سابق. ص1461،1460

فرسالة الرسل وشرائعهم مكملة للفطرة ومذكرة بها، قال تعالى: (**فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّر**)(45)
وقال تعالى: (**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيد**). (46)

يقول ابن تيمية رحمه الله: "كون الخلق مفطورين على الإقرار بالخالق أمر دل عليه الكتاب والسنة، وهو معروف بدلائل العقول...لكن من الناس من فسدت فطرته فاحتاج إلى دواء...إن أكثر الناس غافلون عما فُطروا عليه من العلم، فيُذكّرون بالعلم الذي فُطروا عليه، وأصل الإقرار من هذا الباب، ولهذا توصف الرسل بأنهم يُذكّرون، ويصف الله تعالى آياته بأنها تذكرة وتبصرة، كما في قوله تعالى: (**تَبۡصِرَةً وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡد مُّنِيب**). (47) ". (48)

فالرسل بُعثوا كما دلت الآيات للتذكير والتبصرة وليس لإنشاء المعرفة، فقلوب الناس مفطورة على معرفته والإقرار به، ولكن عُرض لها ماغيرها وبدّلها فأرسل الله تعالى الرسل للتذكير بتلك الفطرة، وإمدادها بالقوة ونفي المغيّر لها حتى تعود إلى صورتها الأصلية التي خلقها الله عليها، مهتدية ومحبة لربها، مخلصة له، مقرة بشرعه.

ويؤكد ذلك ابن تيمية فيقول: "الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها وتقويته وإمداده ونفي المغير للفطرة، فالرسل بُعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا بتغيير الفطرة وتحويلها، والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة". (49)

الإسلام والفطرة:

أمر الإسلام باتباع الفطرة، وحذّر من تغييرها وتبديلها؛ مبيناً أن اتباعها هو اهتداء للدين الذي ارتضاه الله لعباده، وجعله هادياً قيماً لجميع ما يحتاجه البشر في أمر دينهم ودنياهم.

قال تعالى: (**فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ**). (50)

الإسلام يلتقي بالفطرة التقاءً كاملاً، ولكنه يلتقي بها في صورتها الأصلية الصحيحة التي ينبغي أن تكون عليها، ثم هو يقوّمها من انحرافها الذي تتعرض له في أثناء نموها وتطورها.

(45) الغاشية 21
(46) ق 37
(47) ق 8
(48) ابن تيمية: جامع الرسائل. تحقيق: محمد رشاد سالم. جدة. دار المدني. ط2. (1984م). ص14-16
(49) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الرحمن قاسم. الرياض. مجمع الملك فهد. د.ط. (2004م). ج16. ص348
(50) الروم 30

إن الله تبارك وتعالى أودع في فطرة الإنسان أن يعرف خالقه ويتوجه إليه بالعبادة، ثم خلق في هذه الفطرة نوازع شتى هي بمثابة الدوافع التي تدفعه للعمل والنشاط ليحقق المهمة التي من أجلها خلقه الله تبارك وتعالى، وهي الخلافة والتي من مهامها عمارة الأرض.

قال تعالى في شأن الخلافة: **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً)**.(51)

وقال تعالى في شأن العمارة: **(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)**.(52)

وقال تعالى في شأن الدوافع والنوازع الفطرية: **(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ)**.(53)

لولا هذه الدوافع والغرائز الفطرية، ما قام الإنسان بدوره المطلوب من خلافة وعمارة لهذه الأرض، ولكن الله تعالى لم يترك الإنسان مع نوازعه وشهواته وحيداً بلا ضابط ولا وازع، بل منحه كذلك ضوابط فطرية كالدوافع تكبح جماحها وتحد من سيطرتها عليه، وكذلك منحه ضوابط شرعية متمثلة في شرائع الأنبياء والمرسلين. إن مهمة العقيدة هي مساندة الفطرة وتصحيح مسارها الذي انحرفت عنه، مهمتها أن تساعد الفطرة في الاهتداء إلى الله، هذا الاهتداء الكامن في كيانها ولو حجبتها عنه الأمراض والعلل.

مهمة الإسلام أن يوقظ الفطرة؛ حتى يجعلها موصولة بربها في كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور. قال تعالى: **(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ...)**. (54)

يستخدم الإسلام وسائل شتى لإيقاظ الفطرة؛ كي تبقى دائماً على اتصال بخالقها تبارك وتعالى:

- **التدبر في الآيات الكونية:**

"هناك عوامل تفتح في القلب البشري نوافذ إلى الخالق المبدع القدير. وتوقظ العقيدة الكامنة في صميم الفطرة، توقظها ولكنها لا تنشئها إنشاءاً من لا شيء... إن الكون الخارجي لا يحدث في النفس شيئاً لا يكون موجوداً فيها من قبل... إن التوقيعات الكونية على الحس البشري توقظ الفطرة وتوجهها إلى

(51) البقرة 30

(52) هود 61

(53) آل عمران 14

(54) الأنعام 162

الخالق، ولكنها لا تنشئ هذا التوجه ابتداءاً فهو من صميم الفطرة... والقاعدة العامة في كيان الحياة كلها أن **الخارج لا ينشئ شيئاً ما لم يكن الاستعداد له موجوداً في الداخل من قبل**". (55)

القرآن يثير حساسية القلب **بوجود الله تعالى وقدرته المطلقة**، فيوقظ الفطرة البشرية ويُشعرها بضآلتها إزاء قوة الله الخالقة، وتأخذها الروعة والهيبة والجلال، فتجعل الإنسان يَخرُّ ساجداً مقراً بعبوديته لله رب العالمين.

قال تعالى: (**وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ*وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ**). (56)

وقال تعالى: (**إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ**). (57)

ومن ناحية أخرى يثير القرآن حساسية القلب برقابة الله الدائمة عليه. فهو مع الإنسان أينما كان، وهو مطلع على مافي قلبه، عالم بكل أسراره.

قال تعالى: (**أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ**). (58)

والآيات الكونية التي ذكرها القرآن، والتي تدل على عظمة الله وقدرته كثيرة، وهي توقظ الفطرة، وتجعلها موصولة بالله تعالى.

- يخطو الإسلام مع الفطرة البشرية خطوة أخرى، فيرسم لها منهجاً متكاملاً يناسب التركيب الفريد للكائن البشري - العنصر المادي والروحي - منهجاً يراعي الاحتياجات المادية والروحية للإنسان.

جاء هذا المنهج كاملاً من كل جوانبه، متماسكاً وشاملاً لحاجات البشر، لأنه تشريع الحكيم الخبير.

(55) محمد قطب: مرجع سابق ص233
(56) الأنعام 59-60
(57) البقرة 164
(58) المجادلة 7

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [59] ، يشمل جميع جوانب الحياة، فمنه ما ينظم علاقة الإنسان بربه في معرفة الله، وطاعته وعبادته والتقرب إليه، ومنه ما ينظم علاقة الإنسان بأهله وأولاده، ومنه ما يبين الأصول العقدية التي على أساسها ينبني العمل كله، ومنه كذلك مايُهذّب الأخلاق، ومنه مايكفل مصالح الدنيا ويجعلها منصبة في بوتقة مصالح الآخرة.

يقول الأستاذ أنور الجندي رحمه الله: "أعظم مافي الإسلام تلك الظاهرة التي تميزت عن سائر النظم، وهي قدرته البارعة في التوفيق بين الروح والمادة، والقلب والعقل، والدين والدنيا، وإقامة منهج الحياة على أساس الأخلاق، وبناء العلم على أساس الضمير... ، ثم ينقل عن بعض المستشرقين أراءهم:

يقول جرينباوم في كتابه عن الإسلام: "إن الإسلام نظام دنيوي أخروي، في آن واحد، لا ينفصل فيه الدين عن الدنيا، ولا المجتمع عن الشريعة".

ويقول برتراند راسل في كتاب الثقافة والنظام الإجتماعي: "إن الإسلام دين موجه للجماعة يتوغل في حياة الفرد والمجتمع توغلاً كلياً".

ويقول أرنولد توينبي: "إن عقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم، وإن في بقاء الإسلام أمل العالم كله".

ويقول هاملتون جب: "إن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات، إنه منهجية كاملة".

ومن هنا فإن الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي لا تستطيع أن تنفصل أو تنعزل عن روح الإسلام السارية فيها فكراً وثقافة ولغة وتاريخاً وتراثاً. إن الإسلام هو أسمى الأنظمة الحديثة، لأنه يشمل الحياة بأسرها، وأنه يهتم اهتماماً على درجة واحدة بالدنيا والآخرة، والنفس والجسد، والفرد والمجتمع". [60]

ويقول سيد قطب رحمه الله: "الإسلام منهج حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها. منهج يشمل التصور الاعتقادي الذي يفسر طبيعة الوجود، ويحدد مكان الإنسان في هذا الوجود، كما يحدد غاية وجوده الإنساني. ويشمل النظم والتنظيمات الواقعية التي تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي وتستند إليه، وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر، كالنظام الأخلاقي والينبوع الذي ينبثق منه، والأسس

---

(59) الملك 14

(60) الجندي، أنور: منهج الإسلام في بناء العقيدة والشخصية. القاهرة. دار الاعتصام. د.ط. (1980م). ص9-10

التي يقوم عليها، والسلطة التي يستمد منها، والنظام السياسي وشكله وخصائصه، والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته، والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته، والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته". (61)

خلاصة القول: فإن الإسلام منهج رباني، بشريعة محكمة، مفروضة على الإنسان من ربه، أحلت له الحلال، وحرمت عليه الحرام، وحددت له الواجبات، وبينت له الحقوق، وفصَّلت له كل ما يحتاج إليه، فلم تدعه هملاً، ولم تتركه نهباً للفلسفات والنظريات والقوانين البشرية المتضاربة، بل رسمت له طريقاً مستقيماً، وألزمته بالسير فيه. هذا المنهج استوعب الحياة كلها، والإنسان كله في كل أطوار حياته، وفي كل مجالات حياته.

المطلب الثاني: الصحة النفسية:

وضع علماء النفس تعريفات كثيرة للصحة النفسية، تختلف تبعاً لاختلاف مدارسهم ووجهات نظرهم، نذكر منها على سبيل المثال:

- "التوافق التام أو التكامل بين الوظائف النفسية المختلفة، مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية العادية التي تطرأ عادة على الإنسان، ومع الإحساس الإيجابي بالسعادة والكفاية". (62)
- "حالة دائمة نسبياً، يكون فيها الفرد متوافقاً نفسياً –شخصياً وانفعالياً واجتماعياً أي مع نفسه وبيئته- ويشعر بالسعادة مع نفسه، ومع الآخرين، ويكون قادراً على تحقيق ذاته واستغلال قدراته وإمكاناته إلى أقصى حد ممكن، ويكون قادراً على مواجهة مطالب الحياة، وتكون شخصيته متكاملة سوية، ويكون سلوكه عادياً، ويكون حَسَن الخلق بحيث يعيش في سلامة وسلام". (63)
- "النضج الانفعالي والاجتماعي، وتوافق الفرد مع نفسه، ومع العالم من حوله، والقدرة على تحمل مسئوليات الحياة ومواجهة ما يقابله من مشكلات، وتقبل الفرد لواقع حياته، والشعور بالرضا والسعادة".(64)

(61) سيد قطب: المستقبل لهذا الدين. القاهرة. دار الشروق. ط14. (1993م). ص5

(62) القوصي، عبد العزيز: أسس الصحة النفسية. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية. ط4. (1952م). ص 5،4

(63) زهران، حامد عبد السلام: الصحة النفسية والعلاج النفسي. القاهرة. عالم الكتب. ط4. (2005م). ص9

(64) محمد عثمان نجاتي: الحديث النبوي وعلم النفس. القاهرة. دار الشروق. ط5. (2005م). ص271

والصحة النفسية حالة إيجابية تتضمن التمتع بصحة العقل وسلامة السلوك، وليست مجرد غياب أو الخلو من المرض النفسي، كما ورد في تعريف **منظمة الصحة العالمية للصحة النفسية**: "هي حالة من الراحة الجسمية والنفسية والاجتماعية وليست مجرد عدم وجود المرض". (65)

إن التوافق مع الفطرة هو الأساس الذي لا يمكن أن تُبنى صحة نفسية إلا على أساسه، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالفطرة، وتنقيتها من جميع الركام الذي يحاول حجبها عن خالقها.

كل تشريعات الإسلام من عبادات ومعاملات تتوافق مع الفطرة؛ لأنها منزلة من عند من خلق الإنسان على الفطرة. كما أن كل أحكام الإسلام مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد، وكون ماجاء به الإسلام من عبادات ومعاملات متوافقاً ومتناسباً مع الفطرة الإنسانية، فهذا يجعله مقبولاً لدى النفوس مصلحاً لها مهما اختلفت أحوالهم وتباينت ظروفهم.

لقد قام الإسلام يدعو إلى التوازن والاعتدال، فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الإنسان، وعن حقيقة الحياة، فالإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة، يقوم كيانه على قبضة من طين الأرض، متمثلة في العنصر المادي؛ الذي يطلب حظه من الأرض من متاع وزينة. ونفخة من روح الله، التي تتطلع إلى هداها من السماء.

كان من حكمة الله تعالى أن خلق الإنسان على هذه الطبيعة، لأنها تتفق مع الرسالة التي كُلف القيام بها، وهي الخلافة في الأرض؛ فهو بعنصره المادي قادر على السعي والتعمير، وبعنصره الروحي قادر على التحليق والتطلع إلى السماء يستمد العون والمدد؛ فيحقق معاني العبودية.

إن تحقيق التوازن والاعتدال بين المادة والروح في طبيعة الإنسان شرط أساسي لتحقيق نموذج الشخصية السوية التي تتمتع بالصحة النفسية.

إن التوازن هو أصل في الخلقة الربانية، ولكن الإنسان بجهالته هو الذي يخل بهذا التوازن، وعندئذ يحدث الاختلال والاضطراب.

ومن هنا يمكن تعريف الصحة النفسية بأنها: **الحالة التي يكون فيها كيان الإنسان كله، فكره ومشاعره وسلوكه، في الاتجاه الذي يحقق غاية وجوده في هذه الحياة**. قال تعالى: **(قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ). (66)**

---

(65) حامد عبد السلام زهران: المرجع نفسه.

المطلب الثالث: الفطرة والصحة النفسية:

ذكرنا سابقاً أن الله تبارك وتعالى أودع في فطرة الإنسان أن يعرف خالقه، ويتوجه إليه بالعبادة، ثم خلق الله في هذه الفطرة نوازع شتى بمثابة الدوافع التي تدفعه للعمل والنشاط ليحقق مهمة الخلافة التي كُلف بها، ولكنه لم يتركه مع هذه الشهوات بلا ضابط ولا قدرة على الضبط، فلقد أودع فيه ضوابط فطرية كالدوافع سواء بسواء، وقد أطلق عليها أيضاً: الوازع الفطري أو الجبلي أو الطبعي.

تعريف الوازع: "كف النفس عن هواها". (67)

وقيل: "الطَّبع: ما يقع على الإنسان بغير إرادة، وقيل: الجبلة التي خُلق الإنسان عليها". (68)

وقيل: "الطبع: السجية التي جبل عليها الإنسان، وهو في الأصل مصدر، والطبيعة مثله، وكذلك الطباع".(69)

والوازع الفطري: زاجرٌ طبيعي لا إرادي، يحول بين الإنسان وبين القيام بأشياء تتناقض مع فطرته وطبعه الأصلي، فالوازع الطبيعي النابع من فطرة الإنسان وتكوينه الخَلْقي الجبلّي، يجعله ينفر من القيام ببعض الأمور ويبتعد عنها بداعي الطبع لا بداعي الشرع. فهناك الكثير من الأمور والأفعال التي يكفُّ عنها الإنسان وينفر منها بطبعه، وهو وازع عام مستقر في كلِّ نفسٍ بشرية قويمة سليمة غير شاذة ولا مشوَّهة، يشمل المؤمن والكافر؛ لأنَّ مصدره ومنبعه الطبع لا الشرع.

ومن الأمثلة على الوازع الطبيعي: النفور من أكل ذوات السموم والنجاسات، وكذلك تجنُّب الإضرار بالنفس، وكذلك عدم إضرار الوالد بولده وتقصيره في حفظ مصالحه، ومن هذا الباب كراهية الإنسان للقدح والذم، فكل هذه الأمور الأصل أن يمتنع الإنسان عنها بوازع طبيعي لا بوازع شرعي.

"... ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه الشهوات، وهو جزء من تكوينه الأصيل، لا حاجة إلى إنكاره، ولا إلى استنكاره في ذاته. فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطّرد، ولكن الواقع يشهد كذلك بأن في فطرة الإنسان جانباً آخر يوازن ذلك الميل، ويحرس الإنسان أن يستغرق في ذلك الجانب وحده،

(66) الأنعام 162

(67) ابن منظور: مصدر سابق.ج8. ص390

(68) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد: معجم التعريفات. تحقيق: محمد صديق المنشاوي. القاهرة. دار الفضيلة. د.ط. د.ت. ص182

(69) ابن منظور: مصدر سابق. ص232

وأن يفقد قوة النفخة العلوية أو مدلولها وإيحاءها. هذا الجانب الآخر هو الاستعداد للتسامي، والاستعداد لضبط النفس ووقفها عند الحد السليم من مزاولة هذه الشهوات. هذا الاستعداد الثاني يهذب الاستعداد الأول". (70)

الإنسان السوي يستخدم الدوافع والضوابط معاً فيتوازن وتستقيم حياته، ولو أحجم عن استخدام الضوابط الفطرية؛ فإنه يهلك بشهواته تشقيه في الدنيا وتورده النار في الآخرة.

العليم بهذه الفطرة هو الله الذي خلقها، فهو عليم بما يصلح لها ويصلحها، وهو الذي أنزل هذا الدين ليحكم به حياتها الواقعة، كما يحكم علاقتها الخاصة بالله تعالى سواءً بسواء. والدين عقيدة وشريعة. عقيدة تحكم صلات القلب بالله تعالى، وشريعة تحكم واقع الحياة باسم الله تعالى.

قال تعالى: **(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ * قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ).** (71)

الآية الأولى فيها بيان لأنواع مختلفة من الرغبات البشرية، وهي تعبر عن حقيقة الإنسان، وخصّ هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا، وغيرها تبع لها، فلما زُينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلقت بها نفوسهم، ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا إلى قسمين:

الأول: جعلوا هذه الشهوات هي الغاية، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خُلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم، تماماً كما وصفهم الله تعالى: **(وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ).** (72)

والثاني: عرفوا المقصود منها، وأن الله تعالى جعلها ابتلاءً وامتحاناً، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة يتزودون منها لآخرتهم، ويتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته.

قال تعالى: **(إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا).** (73)

---

(70) سيد قطب: مرجع سابق. ج1. ص373،374

(71) آل عمران 14،15

(72) محمد 12

لقد تعامل القرآن مع رغبات الإنسان بوصفها حقيقة ثابتة، لم ينكرها ولم يرفضها، ولكن في الوقت ذاته يُنمّي الوازع الديني لدى الإنسان وذلك من خلال ثقة المؤمن بوعد ربه تبارك وتعالى في جنته ورضوانه.

وهكذا يتعامل القرآن مع الإنسان، فهو يدعو إلى العمل والسعي في الأرض، والمشي في مناكبها، والاستمتاع بطيباتها وزينتها. قال تعالى: **(هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ).** (74)

وقال تعالى: **(قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَة يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡم يَعۡلَمُونَ).** (75)

وبجوار هذا يحث الإنسان على التزود ليوم الحساب، والاستعداد للآخرة، وذلك بالإيمان وحسن الصلة بالله تعالى، ودوام ذكره الذي تطمئن به القلوب. قال تعالى: **(وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡر يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ)** (76) ، وقال تعالى: **(ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ).** (77)

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على توجيه أصحابه إلى التوازن المقسط بين دينهم ودنياهم، وبين حظ أنفسهم وحق ربهم، وبين متعة البدن ونعيم الروح، فإذا رأى في بعضهم غلواً في جانب، قوّمه بالحكمة وردّه إلى سواء الصراط.

خلاصة القول: أن الإسلام يأخذ الكائن البشري على ماهو عليه، لا يحاول أن يرغمه أو يفرض عليه ماليس في طبيعته، فالإنسان في نظر الإسلام كائن بشري، لا هو بالملاك ولا بالحيوان، قبضة من طين ونفخة من روح، مشتمل على استعداد للخير كما هو مشتمل على استعداد للشر.

غاية الإسلام العليا هي تحقيق التوازن في نفس الفرد، فيؤدي ذلك إلى تحقيق التوازن في المجتمع، وبالتالي في الإنسانية كلها بعد ذلك.

(73) الكهف 7
(74) الملك 15
(75) الأعراف 32
(76) البقرة 197
(77) الرعد 28

غاية الإسلام تدريب النفس على اكتساب الكمالات، وتحصيل محاسن العادات، ومكارم الأخلاق.

الغاية العظمى هي إصلاح النفوس والسمو بها، وربطها بخالقها تبارك وتعالى، واخضاعها له في كل أمورها، عن طريق تمجيده وتسبيحه وتقديسه، فهو السبيل الأمثل لجلب الاستقرار والسكينة والأمان لهذه النفس البشرية، عندئذ، وعندئذ فقط تتحقق معاني العبودية التي خُلق الإنسان من أجلها، وتتحقق معاني الصحة النفسية وهي بالنسبة له أن يكون كيانه كله فكره ومشاعره وسلوكه في الاتجاه الذي يحقق غاية وجوده، أما إذا انحرف فقد يستمتع، ولكنه متاع الحيوان ولا بركة له في حياته ولا اطمئنان.

قال تعالى: **(وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوى لَّهُمۡ)**.(78)

وقال تعالى: **(وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَة ضَنكا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ)**.(79)

المبحث الثالث: مفسدات الفطرة و أثرها على الصحة النفسية:

المطلب الأول: مفسدات الفطرة

1- **الشيطان:** بدأت أول ممارسات الشيطان في الغواية والعداء لبني آدم حينما امتنع عن السجود لآدم. قال تعالى: **(وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡر مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّار وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِين)**.(80)

طُرد إبليس من الجنة التي كان ينعم فيها؛ جزاء عصيانه وتبجحه بالعصيان. قال تعالى: **(قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ)**.(81)

لم يخرج منها صاغراً في صمت، بل خرج منها متوعداً لآدم وبنيه، وقد ملأت قلبه الضغينة والحسد. قال تعالى: **(قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ*قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ*قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ*ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ)**.(82)

---

(78) محمد 12

(79) طه 124

(80) الأعراف 11-12

(81) الأعراف 13

(82) الأعراف 14-17

استطاع الشيطان أن يتسلل إلى قلب آدم وبنيه من بعده، فيصرفهم عن الشكر الواجب، وذلك من خلال نقطة الضعف المتأصلة في كيانه؛ فالممنوع يتحول إلى شهوة، ومن الشهوة يتسلل الشيطان.

لقد أُبيح لآدم كل ثمار الجنة، ماعدا شجرة واحدة ممنوعة، ولكن هذه الشجرة الواحدة صارت موضع التطلع والرغبة، وصغرت إلى جانبها كل الثمار الأخرى. قال تعالى: **(وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَ أَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ)**. (83)

لقد غفر الله لهما وتاب عليهما من المعصية التي ارتكباها، ولكنهما هبطا من الجنة كما دبر لهما الشيطان، هبطا جميعاً إلى الأرض ومعهما الشيطان، هبط الفريقان كل بما هو عليه. الشيطان بحقده وحسده وتربصه، والإنسان بمواهبه وقدراته وإرادته، ومعه كذلك نقطة الضعف المتأصلة في كيانه والتي يتسلل منها الشيطان.

تلك هي معركة الحياة بين الإنسان والشيطان، أو الملحمة العظمى التي يخوضها الإنسان. قال تعالى: **(قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ)**.(84)

وقد أشار النبي ﷺ إلى تسليط الشيطان على الإنسان منذ ولادته، واستمراره معه حتى مماته، ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: **"سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: ما مِن بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِن مَسِّ الشَّيْطَانِ، غيرَ مَرْيَمَ و ابْنِهَا. ثُمَّ يقولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: "وَ إِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ"** (85). وهذا الطعن من الشيطان هو ابتداء التسليط.

لقد ذكر الله تعالى تأثير الشيطان على فطرة بني آدم، ودوره في انحرافهم عن الحق في أكثر من موضع من كتابه الكريم: (... **لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ**

---

(83) الأعراف 19-23

(84) طه 123

(85) صحيح البخاري. ح3431. ص363

وَلَأُمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأُمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا * يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا). (86)

لقد سلك الشيطان عدة مسالك في إفساد الفطرة توضحها الآيات السابقة منها:

أولاً: التضليل: من الوسائل المباشرة التي ينتهجها الشيطان لإغواء الإنسان التضليل، وهذه الوسيلة تندرج تحتها وسائل عدَّة، وتتنوَّع كلُّها بحسب نوع الإنسان من حيث عِلمه وثباته واستجابته للشهات أو الشهوات، ومن حيث قوَّة إيمانه ويقينه ونفاد بصيرته، وفي هذه الآيات دلالة على تصريح الشيطان لعنه الله بتضليل بني آدم، واتخاذ طائفة منهم لتصير من حزبه ونصيبه.

- **الدعوة إلى الشرك والكفر:**

وهذا النوع هو أحطِّ أنواع الإضلال وأخبثها وأخطرها، فإذا ظفر به الشيطان من الإنسان فقد ظفر بكلِّ مراده، وحظي بغاية إضلاله وإغوائه.

قال تعالى: **(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا).** (87)

فلما كان الشِّرك والكفر سببًا للخلود في النار، فقد جعله الشيطان أفتك أسلحته وأهم وسائله في حربه مع الإنسان، ولأجل ذلك فإنَّ إبليس يعمد إلى تشكيك بني آدم في توحيد الربوبية والألوهية؛ فإذا يئس عمد إلى تعظيم قبور الصالحين واتخاذ الأصنام والأزلام وسائط مع الله.

- **الدعوة إلى البدعة:**

وهي إلقاء الشبهة على مرضى القلوب، ولا يلجأ الشيطان إلى هذه المرتبة إلاَّ بعد يأسه من الأولى، والبدع هي بريد الكفر وطريقه، وإذا كان الكفر سببًا لحبوط الأعمال فإنَّ البدعة سبب في ردِّها وعدم قبولها، لهذا قال رسول الله ﷺ **"مَن أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هذا ما ليسَ فِيهِ، فَهو رَدٌّ"** (88) ، أي مردود على صاحبه، ولذا فإنَّ الشيطان إذا وجد في المسلم حبَّ الاجتهاد في العبادة ويئس في توهين قوته **دعاه إلى الزيادة في الدين وسلوك سبيل المبتدعين.**

(86) النساء 118-120

(87) النساء 48

(88) المصدر نفسه. ح2697. ص170

- التحريض على الكبائروالفواحش:

فارتكاب الفاحشة أهون من الابتداع في الدين، لذلك فالشيطان لا يحرص على هذا الأسلوب إلاَّ إذا فشل في امتحان المسلم في البدع والضلالات.

- التحريض على الصغائروالمباحات:

فإذا يأس من أن يوقع المسلم في كبائر الذنوب، قعد له في طريق الصغائر واللمم، وسهَّل له سبيلها، وألبسها لباس تزيينه وتحسينه حتى يُبديها له في منظر المباحات، فإذا وجد منه طاعة وانصياعًا تربَّص به حتى يُوقعه في كبيرة من كبائر الإثم، ومن ثم يستفزه ويغويه ويقنطه من التوبة والرحمة؛ فإذا به صريع.

- إشغال المسلم بالعبادة المفضولة عن الفاضلة:

وذلك لأنَّ الشيطان إذا يئس من صرف العبد عن الأوامر أو إيقاعه في النواهي، ووجد منه قوَّةً وثباتًا على الحقّ؛ دخله من باب العبادة نفسها، وقلب له حقائقها، وزيَّن له مفهومها ليشغله عن فاضلها، وليضيّع عليه الثواب الحاصل منها، كأن يُزيّن له قراءة القرآن وقت الصلاة المفروضة حتى تضيع عليه الجماعة .. وكلُّ ذلك من مداخل الشيطان وخطواته التي حذَّر الله جلَّ وعلا منها.

قال تعالى : **(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ)**. (89)

ثانياً: التغرير بالأماني: قال تعالى: **(وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠**

بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيم). (90)

فهذه الآية تدلُّ على أنَّ من أساليب الشيطان في إغواء الإنسان نفث الوعود والتغرير بالأماني الكاذبة، ومن مكائده في هذا الباب التغرير بطول الأمل وزهرة الحياة الدنيا وتزيينها وتحسين الحرص عليها؛ فهو يُدرك حب الإنسان للمال وميله للشهوات وحرصه على لذَّة الحياة.

---

(89) النور21

(90) إبراهيم 22

وإبليس إذا أحسَّ من المسلم إصرارًا على طاعة الله جلَّ وعلا ولم ينفع فيه التغرير والتضليل نهج عدو الله مدخل التسويف، فتجده يُسوِّف للتائب توبته، وللقائم قومته، ويظلُّ يصوِّر له الأعذار ويُزيِّنها له حتى إذا استقرَّ في قلب الطائع تسويفها أنساه الشيطان إيَّاها وفوَّت عليه الظفر بثوابها.

ثالثاً: تغيير خلق الله: من سبل الشيطان في غواية بني آدم، تغيير خلق الله بالإضافة إلى تغيير دين الله، فهو يحاول أن يبدل التوحيد إلى الشرك، والإيمان إلى الكفر، كما أنه يسعى في تغيير خلق الله بما يوحيه إلى هؤلاء البشر من أنواع التغييرات، كتغيير الصورة، قال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: **(وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ)** "خصي الدواب، وقال آخرون من المفسرين: قطع آذان الدواب، وقال ابن مسعود في المراد بالتغيير في الآية: الوشم والنمص وما جرى مجراهما من التصنع للحسن". (91)

وهذا يتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة، فإن الله خلق عباده مفطورون على قبول الحق ومعرفة التوحيد، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشرك، والكفر، والفسوق، والعصيان. قال رسول الله ﷺ قالَ ذَاتَ يَومٍ في خُطْبَتِهِ: **"أَلَا إنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ ما جَهِلْتُمْ، ممَّا عَلَّمَنِي يَومِي هذا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وإنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عن دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بي ما لَمْ أُنْزِلْ به سُلْطَانًا".** (92)

إن الشيطان من أعظم أسباب فساد الفطرة، فكل شر وفسوق، وكل بداية لفكرة منحرفة أو عقيدة ضالة، فمردها الشيطان وحزبه، وهو الذي توعد الإنسان بذلك.

قال تعالى: **(قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ).** (93)

وقال تعالى: **(قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم**

---

(91) ابن كثير، إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي محمد السلامة. الرياض. دار طيبة للنشر. ط2. (1999م). ج2. ص415

(92) سبق تخريجه

(93) الأعراف 16-17

بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا). (94)

وفي الحديث الذي رواه سبرة بن الفاكه المخزومي الأسدي، عن النبي ﷺ قال: **"إنَّ الشَّيطانَ قعدَ لابنِ آدمَ بِطريقِ الإسلامِ ، فقال : تُسْلِمُ وتذَرُ دِينَك ودِينَ آبائِك ؟ ! فعَصاه . فقعَد لهُ بطريقِ الهجرةِ ، فقال لهُ : تُهاجِرُ وتذَرُ دارَك وأرضَك وسماءَك ؟ ! فعصاهُ ، فهاجرَ. فقعَدَ لهُ بطريقِ الجهادِ ، فقال : تُجاهدُ وهوَ جَهْدُ النَّفسِ والمالِ ، فتُقاتِلُ فتُقْتَلُ فتُنكَحُ المرأةُ ويُقْسَمُ المالُ ؟ فعَصاه ، فجاهدَ . فقال رسولُ اللهِ ﷺ : فمَن فعل ذلكَ فماتَ ؛ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ ، وإن غرِقَ ؛ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ ، وإن وَقصَتْه دابَّةٌ ؛ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ".** (95)

وهكذا يحاول الشيطان إغواء الإنسان بكل سبيل، يأتيه من بين يديه يشككه في دينه، ويأتيه من خلفه يزين له دنياه، ويأتيه عن يمينه فيُسوّف عليه أمر آخرته، ويأتيه عن شماله فيثبطه عن الحسنات، ويأمره بالسيئات، فما العمل؟ وكيف النجاة؟.

من أراد أن ينجو ويعتصم من الشيطان فعليه اللجوء إلى خالقه. قال ابن الجوزي رحمه الله: "حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده!! قال: هذا يطول، أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور ما تصنع؟ قال : أكابده وأرده جهدي، قال: هذا يطول عليك، **ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك".** (96)

قال تعالى: **(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ).** (97)

2- **البيئة الاجتماعية الفاسدة:** يمكن تعريف البيئة الاجتماعية: بأنها المحيط الذي يجمع أفراد الأسرة والمجتمع المحلي الذين لهما أثر معين في حياة الإنسان.

---

(94) الإسراء 62-64

(95) الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح الترغيب والترهيب. الرياض. مكتبة المعارف. ط1. (2000م). ح1299. ج2. ص102

(96) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي: تلبيس إبليس. بيروت. دار الفكر. ط1. (2001م). ص 35

(97) فصلت 36

وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: **"ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدْعَاءَ، ثُمَّ** يقولُ

أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: **(فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)".** [98]

فالفطرة السليمة هي الأصل، ثم يطرأ بعد ذلك الانحراف بسبب عوامل منها: عوامل البيئة، والوالدين، وهما من أقواها؛ ولذلك قال ﷺ: **"فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"**؛ ففي هذا إشارة إلى خطر تأثير الأبوين في اتجاه ومستقبل أولادهما.

فإذا كانت التربية فاشلة، أو كان الوالدان كافرين؛ فهذا الطفل سوف يقلد أبويه، وتفسد فطرته بهذه العوامل، أما إذا بقي على الفطرة السليمة النقية، ثم جاء الأبوان يقويان هذه الفطرة؛ حينئذ ينشأ الطفل نشأة سليمة يعرف من خلالها دينه وسنة رسوله ﷺ معرفة صحيحة توصله إلى الحق والرشد، ويعرف الصواب ويلزم ما طبع عليه في الأصل من هذه الفطرة.

يقول تعالى: **(وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ).** [99]

وفي هذه الآية إشارة إلى أن البيئة الطيبة الصالحة تكون ثمارها- بإذن ربها – صالحة، ومثلها البيئة الفاسدة تكون ثمارها غالباً متأثرة بتلك البيئة.

"... والبيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة، فهي تمسخها وتشرد بها، وتخلف فيها العلل، ما يجعلها تَعاف العذب، وتَسيغ الفجّ، وذلك سر انصراف فريق من الناس عن الإيمان والصلاح، وقبولهم للكفر والشرك، مع منافاة ذلك لمنطق العقل، وضرورات الفكر وأصل الخلقة". [100]

إن أخطر ما في البيئة الفاسدة أنها تروّج مصطلحات الإلحاد، والطائفية، والعنصرية، والفوضى الجنسية، والإدمان، وغيرها مما حوته قواميس العفن الفكري والسلوكي، تهدف إلى دمار المجتمعات. ولا يخفى على أحد، أن صراع أهل الحق مع البيئة الفاسدة صراع أزلي لا ينتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(98) سبق تخريجه.

(99) الأعراف 58

(100) الغزالي، محمد: عقيدة المسلم. القاهرة. نهضة مصر. ط4. (2004م). ص12

قال تعالى: (**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ**). [101]

وقال تعالى: (**وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلا**).[102]

وقال تعالى: (**وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ**). [103]

البيئة تؤثر سلباً أو إيجاباً في تربية الإنسان أيما تأثير، فغالب من يتربى وينشأ في وسط بيئة اجتماعية صالحة يكون من أهل الصلاح، وغالب من يعيش في بيئة فاسدة يكون من أهل الفساد.

قال تعالى: (**يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّا**) [104] ، والمعنى أن أبويك كانا صالحين، وأن الأبناء في الغالب يكتسبون الصلاح من أبائهم، وكذلك الفساد بفسادهم.

الإنسان يتأثر كذلك بأصحابه، فإن كانوا من الصالحين، اكتسب منهم الصلاح والتقوى، وإن كانوا غير ذلك تأثر بهم فمال مع المائلين وانحرف مع المنحرفين. ففي الحديث عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "**المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم من يَخالُ**". [105]

وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: "**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ والسَّوْءِ، كَحامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ: إمَّا أنْ يُحْذِيَكَ، وإمَّا أنْ تَبْتاعَ منه، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه رِيحًا طَيِّبَةً، ونافِخُ الكِيرِ: إمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ، وإمَّا أنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**". [106]

إن سوء البيئة الاجتماعية يولد في أفراد المجتمع نزعة كبيرة للفساد، فهو يفسد الفطرة ويضعف الوازع الديني والفطري معاً، فيصبح الإنسان عُرضة للوقوع في المعاصي والذنوب، وإذا ما تعرضت البيئة الاجتماعية إلى أكثر من ذلك فتغربت، وتخلت تحت تأثير الضغوطات المتنوعة عن مقوماتها الأساسية والذاتية، وضاعت هويتها، وانحرفت المفاهيم، وأصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، تشكل

(101) إبراهيم 13

(102) الإسراء 76

(103) الأنفال 30

(104) مريم 28

(105) ابن عساكر، علي بن الحسن: معجم الشيوخ. تحقيق: وفاء تقي الدين. دمشق. دار البشائر. ط1. (2000م). ح1594. ص1220. وقال: هذا حديث حسن غريب

(106) صحيح البخاري: ح5534

سلوك الفرد على مقتضى تلك المفاهيم؛ فتسقط الفطرة تحت رُكام الشهوات والأهواء، ويُحجب عنها الحق الذي وُلد معها والكامن فيها.

المطلب الثاني: أثر فساد الفطرة على الصحة النفسية:

هناك ارتباط وثيق بين انحراف الإنسان وانتكاس فطرته، واختلال الصحة النفسية له. فالإنسان حين تنتكس فطرته وتنحرف عن مسارها الطبيعي الذي جُبلت عليه، تعمى بصيرته، وتنحرف مفاهيمه، فيصبح لا يُنكر منكراً، ولا يعرف معروفاً، ولا يبحث عن الدواء لما يُعانيه، وهو قريب منه غير بعيد. وفي الحديث الذي رواه البخاري عن حذيفة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: "**تُعْرَضُ الفِتَنُ علَى القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتَّى تَصِيرَ علَى قَلْبَيْنِ، علَى أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواهُ**...".[107]

إن مخالفة الفطرة تعني نقض العهد الذي تعهد به الإنسان لربه تبارك وتعالى: (**وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۛ**...)[108] ، فالإنسان اعترف بوحدانية الخالق تبارك وتعالى، والإيمان منسجم مع الفطرة التي خلق الله الناس عليها، والشرك نقيض الفطرة، وبالتالي حين يخالف الإنسان فطرته، ويناقض هذا العهد؛ يتصادم الإيمان الفطري مع الشرك في قلب الإنسان، ويتولد الصراع النفسي، وينشأ عنه فساد التصور واضطراب السلوك. ومخالفة فطرة التوحيد نراها اليوم في موجة الإلحاد والشذوذ التي تعصف بالعالم كله وبخاصة الشباب في العالمين العربي والإسلامي، فهم يسلكون مسلك الإلحاد والشذوذ والرغبة في التحلل من الدين وقيود الحلال والحرام والبحث عن إشباع شهوات النفس في المتعة الحرام حتى لا يشعر بتأنيب النفس والهروب من قضية الحساب واليوم الآخر ومراقبة الله.

قال تعالى: (**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ**)[109]. هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

---

(107) صحيح البخاري: ح144

(108) الأعراف 172

(109) الأنعام 82

كذلك حين يختار الإنسان الانسياق وراء شهواته وملذاته، ومخالفة فطرته، والإذعان للشيطان، واتباع الهوى، حينها ينسى الغاية الجليلة التي من أجلها خلقه الله تعالى، وينسى دوره الريادي الذي خُلق له، في هذه الحالة يصبح في معيشته أشبه بالحيوان.

قال تعالى: **(أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا).** (110)

والناس حين ينحرفون في إشباع الشهوات لا يسلمون من نتائج هذا الانحراف، بل يصيبهم الضنك في المعيشة والخسران في الآخرة. قال تعالى: **(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ).** (111)

إن مخالفة الفطرة والوقوع في الذنوب والمعاصي الشهوانية، من أهم الأسباب التي ينشأ عنها الصراع النفسي، وتأنيب الضمير والشعور بالكدر والحزن والهم، وما يتبعه من قلق واضطرابات نفسية.

يقول ابن تيمية رحمه الله: "والقلوب فيها وسواس النفس، والشيطان يأمر بالشهوات والشبهات ما يفسد عليه طيب عيشها، فمن كان محباً لغير الله فهو مُعذّب في الدنيا والآخرة، إن نال مراده عُذّب به، وإن لم ينله فهو في العذاب والحسرة والحزن". (112)

وقال أيضاً: "ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا، وبما شهد في كتابه: أن المعاصي سبب المصائب، فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال، وأن الطاعة سبب النعمة، فإحسان العمل سبب لإحسان الله. قال تعالى: **(وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ)**(113) ..". (114)

خاتمة البحث:

إن الفطرة هي الأساس في حصول التوافق النفسي للإنسان مع أصل خلقته، وبدونها لا يمكن أن تُبنى صحة نفسية نموذجية للكائن البشري الذي خلقه الله لعبادته ولعمارة الأرض. وإن كل تشريعات الإسلام

(110) الفرقان 43-44

(111) طه 124

(112) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. ج28. ص31-32

(113) الشورى 30

(114) ابن تيمية: المصدر السابق. ص138

من عبادات ومعاملات تتوافق مع الفطرة؛ لأنها شريعة منزلة من عند الله تبارك وتعالى الذي خلق الإنسان على هذه الفطرة. فاهتداء الإنسان إلى فطرته كسب كبير؛ يجعله يعيش في سلام ووئام مع نفسه، ومع المجتمع من حوله. والحقيقة التي تؤكدها الشواهد أن في فطرة الإنسان فراغاً لايملؤه علم ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان، وستظل الفطرة تشعر بالجوع والظمأ والتوتر حتى تهتدي إلى الله وتؤمن به وتتوجه إليه.

يقول ابن القيم رحمه الله: "ففي القلب شعث، لا يلمه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة، لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته. وفيه حزن، لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته. وفيه قلق، لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه. وفيه نيران الحسرات، لا يطفئها إلا الرضى بأمره، ونهيه، وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه. وفيه فاقة، لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره." (115)

والفطرة السليمة هي بمثابة المقياس أو المعيار الذاتي الموجود لدى الإنسان؛ لأن الإنسان قبل أن تتدخل عوامل البيئة في إفساد معاييره الفطرية، يمكن أن يهتدي لكثير من السلوكيات السوية، وينفر من كثير من السلوكيات المنحرفة، ففي حديث وابصة بن معبد الأسدي ﵁عن النبي ﷺ قال: **"يا وابصةُ! أُخبرُك ما جئتَ تسألُ عنه؟ قلتُ: يا رسولَ اللهِ! أَخبِرني. قال: جئتَ تسألُ عن البِرِّ والإثمِ. قلتُ: نعم. فجمع أصابعَه الثَّلاثَ، فجعل ينكُتُ بها في صدري ويقولُ: يا وابصةُ! استَفْتِ قلبَك، البِرُّ ما اطمأنَّت إليه النفسُ، واطمأنَّ إليه القلبُ، والإثمُ ما حاك في القلبِ، وتردَّد في الصدرِ وإن أفتاك الناسُ و أفتَوْك".** (116)

ولكن الشيطان والبيئة لا يدعانه، الشيطان يدعوه إلى الغواية والضلال، والمجتمع يلقنه معاييره السائدة سوية كانت أو منحرفة، فيتكون لديه عقل مكتسب غير العقل الغريزي الذي خُلق به، لذلك جاءت الشريعة لتصحح المفاهيم السائدة في المجتمعات المنحرفة؛ فتستقيم الفطرة، ويعود التوازن النفسي بين الإنسان وفطرته.

---

(115) ابن القيم: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. تحقيق: محمد حامد الفقي. بيروت. دار الكتاب العربي. ط2. (1973م). ج3. ص164

(116) الألباني: صحيح الترغيب. ح1734

وأخيراً: يجب على الإنسان أن يتعهد فطرته بالرعاية والعمل على تنميتها وإزالة ركام الشهوات من حولها، والمحافظة عليها من أعدائها الذين يعملون جاهدين على فسادها وانحرافها؛ حتى تستقيم حياته ويستمتع بالطمأنينة والسعادة والرضى بالنفس والصحة النفسية. والحمد لله رب العالمين.

مراجع البحث:

- **أحمد بن فارس**، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي. (ت 395هـ).

معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت. دار الفكر. د.ط. د.ت.

- **الآلوسي**، أبو الثناء محمود شهاب الدين بن عبد الله بن محمود. (ت 1270هـ)
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم**. تحقيق: ماهرحبوش. بيروت. مؤسسة الرسالة. ط1. (2010م)
- **أنور الجندي**

منهج الإسلام في بناء العقيدة والشخصية. القاهرة. دار الاعتصام. د.ط. (1980م)

- **البخاري**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردذبة. (ت 256هـ)

صحيح البخاري. تعليق: عبد السلام عمر علوش. الرياض. مكتبة الرشد. ط2. (2006م).

- **ابن تيمية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام. (ت 728هـ)

درء تعارض العقل والنقل. تحقيق: محمد رشاد سالم. الرياض. جامعة الإمام محمد بن سعود. ط2. (1991م).

جامع الرسائل. تحقيق: محمد رشاد سالم. جدة. دار المدني. ط2. (1984م)

مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الرحمن قاسم. الرياض. مجمع الملك فهد. د.ط. (2004م). ج16. ص348

- **الجُرْجَاني**، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد. (ت 471هـ).

معجم التعريفات. تحقيق: محمد صديق المنشاوي. القاهرة. دار الفضيلة. د.ط. د.ت.

- **ابن جرير الطبري**، أبو جعفر محمد جرير بن يزيد بن كثير بن غالب. (ت 310هـ).

جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. القاهرة. دار هجر. ط1. (2001م).

- **ابن الجوزي**، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي. (ت 597هـ)

تلبيس إبليس. بيروت. دار الفكر. ط1. (2001م).

- **خان، وحيد الدين**

الدين في مواجهة العلم. ترجمة: ظفر الإسلام خان. بيروت. دار النفائس. ط4. (1987م).

- **زهران**، حامد عبد السلام (دكتور)

الصحة النفسية والعلاج النفسي. القاهرة. عالم الكتب. ط4. (2005م)

- **سيد قطب**. (ت 1386هـ).

في ظلال القرآن. القاهرة. دار الشروق. ط32. (2003م).

المستقبل لهذا الدين. القاهرة. دار الشروق. ط14. (1993م).

- **ابن عساكر**، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي. (ت 571هـ).

معجم الشيوخ. تحقيق: د. وفاء تقي الدين. دمشق. دار البشائر. ط1. (2000م).

- **العمري**، أحمد جمال

مقال بعنوان: **نظرة الإسلام إلى الخيروالشر**. شبكة الألوكة.

- **الفراهيدي**، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم. (ت 173هـ).

معجم العين. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. بيروت. دار الكتب العلمية. ط1. (2003م).

- **القرطبي**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر. (ت 671هـ).

الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن. بيروت. مؤسسة الرسالة. ط1. (2006م).

- **القوصي**، عبد العزيز (دكتور)

أسس **الصحة النفسية**. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية. ط4. (1952م).

- **ابن القيم الجوزية**، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب. (ت 751هـ)

شفاء العليل في مسائل القضاء والقدروالحكمة والتعليل. تحقيق: زاهر بن سالم بلفقيه. بيروت. دار ابن حزم. ط1. (2019م).

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين. تحقيق: محمد حامد الفقي. بيروت. دار الكتاب العربي. ط2. (1973م).

- **ابن كثير**، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي. (ت 774هـ)

تفسيرالقرآن العظيم. تحقيق: سامي محمد السلامة. الرياض. دار طيبة للنشر. ط2. (1999م).

- **محمد قطب**. (ت 1435هـ)

دراسات في النفس الإنسانية. القاهرة. دار الشروق.ط10. (1993م).

- **مجموعة من العلماء الأمريكيين**.

الله يتجلى في عصرالعلم. ترجمة: د. الدمرداش عبد المجيد. بيروت. دار القلم. د.ط. د.ت.

- **مسلم بن الحجاج**، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري. (ت 261هـ)

صحيح مسلم. تحقيق: صدقي جميل العطار. بيروت. دار الفكر. ط1. (2003م)

- **المنذري**، زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله. (ت 656هـ).

صحيح الترغيب والترهيب. جمع وتصحيح الألباني. الرياض. مكتبة المعارف. ط1. (2000م)

- **ابن منظور**، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور. (ت 711هـ).

لسان العرب. بيروت. دار صادر.د.ط. د.ت.

- **نجاتي**، محمد عثمان (دكتور)

مدخل إلى علم النفس الإسلامي: القاهرة. دار الشروق. ط1. (2001م)